

وأموالا وفيرة، واستدعى في يوم افتتاحه قدحا من شرابه فشربه وقال: "قد وقفت هذا على مثلى فمن دونى وجعلته وقفاً على الملك والمملوك والجندي والأمير والكبير والصغير والحر والعبد والذكور والإناث" ثم يقول المقرئ إنه رتب فيه العقاقير والأطباء وسائر ما يحتاج إليه من به مرض من الأمراض، وجعل السلطان فيه فراشين من الرجال والنساء لخدمة المرضى وقرر لهم المعاليم، ونصب الأسرة للمرضى وفرشها بجميع الفرش المحتاج إليها في المرض، وأفرد لكل طائفة من المرضى موقعا: فجعل أوابين المارستان الأربعة للمرضى بالحميات ونحوها، وأفرد قاعة للرمدي وقاعة للجرحى وقاعة لمن به اسهال وقاعة للنساء، ومكاناً للمبرويدين ينقسم قسمين: قسما للرجال وقسما للنساء، وجعل الماء يجري في جميع هذه الأماكن، وأفرد مكاناً لطبخ الطعام والأدوية والأشربة، ومكاناً لتركيب المعاجين والأكحال والشفافات ونحوها.. وجعل مكاناً تفرق فيه الأشربة والأدوية، ومكاناً يجلس فيه رئيس الأطباء الإلقاء درس طب، ولم يخص عدة المرضى بل جعله سيلا لكل من يرد عليه من غنى وفقير، ولا حدد مدة لإقامة المريض، ورتب منه لمن هو مريض في داره سائر ما يحتاج إليه".

ويتضح من هذه العبارات أن الخدمات الاجتماعية في مصر في العصور الوسطى طفرت بتقدم كبير يرفع من شأن مصر في نظر المؤرخ الحديث، وأن الدستور الذي وضعه السلطان قلاوون لمارستانه يعطينا فكرة طيبة عن المساواة في الحقوق الاجتماعية بين مختلف الطبقات، ويظهر لنا بجلاء مدى فهم الدولة لواجبها نحو رعاياها عامة والمرضى خاصة، كما يدل على مبلغ التنظيم الإداري الدقيق الذي امتازت به تلك الفترة من التاريخ المصري.

ومن المنشآت الغربية على الإسلام وأهله: الخوانك والأربطة، فلم يكن مألوفاً لدى المسلمين الأول إنشاء بيوت خاصة للعُبدَّاد والمتزهدين، يحبسون فيها أنفسهم للصلاة الصيام فحسب. ويبدو أن تلك التنظيمات الحديثة على أهل الإسلام إنما هي أثر من آثار المسيحية بالشرق لأنها قريبة شبهة بالأديرة، وإن كان ما أفاده العالم المسيحي من الأديرة أعظم بكثير مما أفاده العالم الإسلامي من الخوانك والأربطة، بل يمكن القول بأن المسلمين لم يفيدوا شيئاً البتة من تلك المنشآت.